بهجت أبو غربية

الأخلاق والحياة

لا خيار سوى الإنتصار

رسالـــة
الى الشباب
العربـــي



منشورات 1999 الطليعة

الأخلاق والحياة

بهجت أبو غربية

نحن نحيا ... ما في ذلك ريب ... فنحن نتحرك ، وننمو ، ونتكاثر . ونفكر . ونبدع ، وهذا ما اصطلحنا على تسميته بالحياة ... ولن أبحث في غاية الحياة، فقد أعيي ذلك الفلاسفة. ولكنني مع ذلك أحس واشعر بضرورة الحياة، شعورا قد لا يكون مع ذلك للفكر اثر كبير فيه، واعتقد إن هذا الشعور طبيعي ومنطقي ، وهو كظاهرة موجود أيضا في النبات والحيوان الذي لا يفكر ولا يستطيع إن يسأل نفسه هذا السؤال الإنساني الخالد ، لماذا أعيش؟

فالبذرة حينما توضع في ارض رطبة تفرخ وتنبت ويمتد ساقها ، وتنطلق أوراقها ، وتبلغ غاية ما تمكنها ظروفها من النماء وتعطي ما تستطيع من الثمر . وهي لا تنتحر أبدا كما يفعل الإنسان أحيانا في حالات الشذوذ ، ولكنها قد تضعف أو تموت نتيجة لنقص أو انعدام إمكانيات الحياة . فالأمر الطبيعي والمعقول إذن إن الإنسان أيضا يحيى ويتطور طالما كانت هناك إمكانيات لذلك . ولذا أصبحت الحياة بديهة لا يتساءل عن ضرورتها اغلب الناس ، وان فعلوا ففي فترات قصيرة من حياتهم فقط .

وما دامت الحياة كذلك ، وما دمنا موجودين على هذه الأرض إذن يجب إن نحيا ، وليست الحياة مجرد الوجود وما دمنا سنحيا فان من واجبنا ومن الخير لنا إن نوفر أفضل الشروط لتكون هذه الحياة على خير صورها ، صورها التي يدفعنا إحساسنا بواقعنا إلى الشعور بضرورتها ، ويحملنا عقلنا على إن لا تكون مرتجلة فنعمد إلى تخطيطها والإبداع فيها بما يصاحب ذلك من صواب وخطأ . فما دمنا في خضم الحياة وما دمنا نفكر ، فنحن حتما نخط دستور الحياة .

ولقد استيقظت الأمة العربية أخيرا على واقعها المرير الحاضر وتفتح شعورها القومي وتبلور ، وبرزت شعاراتها القومية نظريا وعلميا في النضال الفكري واليدوي والاجتماعي من أجل بعث الأمة وأحيائها ، حتى تصبح وحدة ناشطة منتجة منسجمة ضمن المجموعة الإنسانية لا كما مهملا ، تعيش على هامش الحياة ، عالة على الأمم الأخرى في كل حاجاتها الفكرية والمادية ، وبكلمة واحدة ، أصبح بعث الأمم محط أمال كل مخلص من أبنائها وهدف كل مناضل من مناضليها . وبعث امة من رقدتها يتطلب العمل في عدة نواح والنضال ضد قوى كثيرة وفي عدة جهات ، ولكن من أهم نواحي العمل القومي من اجل البعث ، بل من أهم الركائز التي

يستند إليها كل نضال قومي ، التربية المسلكية المتينة المنسجمة مع الظروف ومتطلبات الفترة الحاضرة من حياة امتنا باعتبارها مرحلة نضال من اجل البعث . وعملية التربية في حد ذاتها عملية متعددة الجوانب أيضا ، ولكن من أهم نواحيها إن نحدد نواحي الفساد في مسلكنا فنحاربها ، وان نوضح متطلبات الفترة التي نعيشها من الإعمال الخلقية للشعب عامة وللمناضلين خاصة فنمارسها.

للحكومات دساتير تحدد الحقوق والواجبات وما هو جائز وما هو غير جائز ... وللحكومات قوانين تفصل ما أجمله الدستور لتضعه موضع التنفيذ والتحقيق ولو أمعنا النظر لوجدنا إن القوانين والدساتير ما هي إلا تخطيط الإنسان للحياة وهي لذلك ضرورية جدا لكي لا تكون الحياة مرتجلة وبالتالي لكي لا تكون مضطربة وسيئة .

وما تحتاجه امة في عصر من العصور أو في وضع من الأوضاع يختلف عما تحتاجه في عصر أو في وضع أخر ، ولذا كانت الدساتير في الأمم الحية متطورة غير جامدة . هذا التطور في الدساتير والقوانين أمر ضروري جدا لضمان استمرار التقدم البشري ، وهو يحصل بشكل طبيعي وفقا لذلك ، فأخلاق الفروسية في عهد الإقطاع كالمبارزة بين النبلاء لأتفه الأسباب ، وطاعة التابع المطلقة للمتبوع قد زالت بزوال العهد . وحلت محلها الأخلاق البرجوازية التي تغلغلت فيها مظاهر الطاعة العمياء لتحل محلها بذور الثورات الشعبية .

ودساتير الأمم ليست فقط ما هو مدون لديها من موارد اقرها الشعب بصورة من الصور ، بل هناك أمور كثيرة جدا هامة جدا ، يقرها الشعب ويتبعها ويطورها ، دون إن تدخل نصوص الدستور أو القوانين المكتوبة . وهذه الأمور بالدرجة الأولى ما اصطلحنا على تسميته بالأخلاق ، وكثيرا ما تكون للأخلاق قوة وقدسية تفوق قوة القوانين وقدسيتها . بل إن الدستور نفسه والقوانين والأنظمة نفسها ما هي إلا تعبير عن هذه الأخلاق او تفسير لها قام الإنسان بتدوينها بعد إن شعر بضرورتها لينفذها وليضمن مراعاتها . ولكن الأمر لا يلبث ان ينعكس فتصبح الأخلاق الحسنة هي عمل ما يطابق الدستور والقوانين وما اصطلح عليه والأخلاق السيئة هي مخالفة ذلك.

والأخلاق في كثير من الأحيان وفي الأمم المتطورة خاصة تعبر عن الرجع السريع الأولي لاحتياجات المجتمع . وتكون أيضا وفي الأمم المتأخرة خاصة ممثلة لرواسب الماضي بنظمه وحاجاته ، استمرت في الحاضر لا بحكم الحاجة إليها بل بحكم الوراثة والتقليد، بعد إن زالت ضرورتها هذه هي الصورة المائعة للأخلاق ، ولكنها لا تلبث إن تتبلور إلى حد بعيد إذا ما استقرت أوضاع الأمة المادية والاجتماعية فترة من الزمن على شكل من الإشكال وتصبح عندئذ ممثلة للشروط اللازمة لضمان استقرار الوضع اللازم لأقوى عناصر المجتمع في فترة من الزمن . ففي الفترة التي تكون فيها طبقة أصحاب المصانع مسيطرة مثلا ، يرى صاحب المصنع إن أفضل عامل من عماله هو من يتحلى بأخلاق القناعة والرضى بما قسم الرحمن والكد الطويل في الليل والنهار ، ويرى كل خروج على ذلك خروجا على الأخلاق ولذلك تراه يسعى لان يستقر الوضع على ذلك ، بسن القوانين وتعديل الدساتير ونشر الدعاية للأخلاق التي تضمن مصلحته دون ان يتقيد بها هو في معظم الأحيان . ولكننا نرى الوضع ينعكس تماما إذا ما أصبحت طبقة العمال قوية . فيصبح الرضا بالعمل ساعات طويلة من النهار ذلا وعبودية ، وتصبح الرأسمالية نفسها جريمة لما تنطوي عليه من استغلال أصحاب راس المال للعمال .

ومهما حاول بعض الفلاسفة والخياليين من دروب المنطق أو السفسطة ، فليس للأخلاق بل ليس لشيء ما في هذا الوجود مفهوم خارج نطاق الحياة ، لان كل ما هو قائم حولنا هو ما نحس به أو نفكر فيه ثم نعبر عنه بشكل ما ونطوره وفقا للحياة ومقتضيات الحياة . وحتى الأديان نفسها عالجت الأمر في معظم الحالات على هذه القاعدة ، فقد ارجع القران الكريم عادة وأد البنات التي كانت شائعة في الجاهلية إلى عوامل اقتصادية متعلقة بصميم الحياة ، إذا يقول" ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق" ، نحن نرزقكم وإياهم " فالفقر هو التفسير الصحيح لانتشار عادة وأد البنات في ذلك العصر وليس كما كان يدعي للمحافظة على العرض والشرف وما الى ذلك ، وهذا لا يعني انه لم يئد البنات إلا فقراء ذلك العصر ولكننا نقول إن ذلك هو أهم أسباب منشأ العادة وان العادة والخلق إذا ما انتشرت تصبح مرعية وذات اثر كبير ولم لم تقم الصلة بينها وبين علتها والحاجة إليها .

وما دامت الأخلاق كما وصفنا ملتصقة بالحياة وحاجاتها ، وجب ان تستجيب لحاجات الحياة وان تتطور وفقا لذلك . والواقع ان هذا التطور واقع وبشكل حسن في كثير من الأمم ولكنه يتفاوت سرعة وبطء بين امة وأخرى ، والأمم السعيدة أو التي تسير في طريق السعادة ، هي الأمم التي يستخدم أبناؤها عقولهم وسواعدهم وكل إمكانياتهم للإسراع في عملية التطور هذه وتوجيهها توجيها صحيحا.

ولكن هذا القول مردود فالفرق كبير بين النسبية والريبية كما ان الفرق كبير بين التغير والتطور فليست الريبية نتيجة طبيعية للنسبية الخلقية . وان من يلاحظ التطور الحلقي جملة ، يشهد منظرا من التكامل وارتقاء ، لا منظرا من الاضطراب والانحلال ، وليس كل تغير تطورا ، لان التطور يخضع لقوانين معينة ، أهمها تلبية حاجات الحياة الصاعدة في سلم التقدم . فتطور الأخلاق إذن يعني تكامل تجربة الإنسان الصاعدة ، وليس غريبا إذن إن نرى امتن الناس أخلاقا أكثرهم اندماجا في المجتمع وأكثرهم تضحية في سبيل ذلك . إلا إن هناك أمورا تعد من الأخلاق كالصدق والعدل والحق والرحمة والخير والمحبة ، وهي في الواقع معان أزلية ومثل عليا لا تتغير في ذاتها ، ذلك لأنها منابع الأخلاق . ولكن التطور يجري باستمرار في كيفية تطبيقها .

الأخلاق إذن دستور الحياة ، والحياة متطورة صاعدة ، ولذا يجب إن يكون دستورها متطورا صاعدا مرنا ، ولكن هذا لا يجوز ان يمنع من تدوينه بين فترة وأخرى من فترات التاريخ وما حواه من تفاصيل أمور نهائية ، وألا أصبح بعد فترة من الزمن عقبة في سبيل التقدم بدلا من إن يكون سجلا لأحدث ما وصل إليه الإنسان من نتائج تجربته الحياتية وحافزا على تنفيذ ما وصلت إليه هذه التجربة وقاعدة للانطلاق إلى المستقبل المشرق .

وفي مجتمعنا العربي اليوم الذي أصبح يشعر بذاته إلى حد ما بذور بدأ يلامسها غيث الحياة بعد التجارب القاسية التي مرت به ، وأصبحت هذه البذور بحاجة إلى إن نتعهدها فنيا وان نوفر لها ما تتطلبه من شروط الحياة . وهي في رأيي تمثل الرجع الأولي الصحيح لاحتياجاتنا في هذه المرحلة من حياة امتنا وهي لذلك بذور البعث التي إذا ما أصبحت خلقا عاما وامرأ عاما ذا فعالية لعبت دورا هاما في بعث امتنا ونقلها من وضعها الحاضر الميت إلى وضع صحي حي سليم ، ولهذا جئت أنبه إليها وأدونها وبالتالي اخطط للحاضر والمستقبل القريب .

وانأ إذ أدون هذه الكلمات ، لا أدونها تدوينا مثاليا طوبائيا ، يتخيل التخيلات المجردة البعيدة عن الواقع والإمكان ، ولا تدوين السلفي المحافظ الذي يخاف من كل جديد ويعتقد " إن ليس في الإمكان أبدع مما كان" وان هذه القواعد أو تلك قد أصبحت

حقائق ثابتة أو قوالب جامدة مفروضة علينا من فوق وليس لنا إلا تبريرها وإطاعتها والتقيد بها . ولا أدونها أيضا تدوينا ماديا ينظر إلى الحياة من جانب واحد منها فقط ويصوره على انه هو الحياة بكاملها.

ولا أدونها تدوينا " مدرحيا" ينظر الى المادة والفكر كعنصرين منفصلين فيعمد إلى المزج بينهما وفقا للنسبة التي يرتئيها . بل أدونها تدوينا بعثيا حياتيا ، يؤمن بفلسفة الحياة فلسفة الوجود ، التي تنظم المادة والفكر في وحدة تامة متماسكة ، الفكر فيها متأثر ومؤثر ، وكذلك المادة وسلسة التأثرات والتفاعلات هذه طويلة معقدة مستمرة الى ما لا نهاية وقد لا يعنيني أو يؤثر في تخطيطي إن احدد أسبقية الفكر او أسبقية المادة وهل البيضة من الدجاجة أم إن الدجاجة من البيضة . إذن فانا أدون هذه الأخلاق وفقا للقواعد التي ذكرتها واعتبر الأخلاق بما في ذلك الدساتير والقوانين متأثرة ومؤثرة في الحياة ومتطلباتها وظروفها .

لقد جئت بالمقالات التالية أصور المدلول العلمي للأخلاق التي تتلاءم في مرحلتنا التاريخية الحاضرة ، مرحلة النضال في سبيل التحرر ، والوحدة والاشتراكية . وقد يجد القارئ فيها مزيجا من التجربة والتوجيه ، ولذا فقد لا يجد مبررا لتسميتها بالأخلاق ، ولكن الواقع هو إن الأخلاق ، تجربة وتوجيه ، وتحقيق لذلك التوجيه . وقد صيغت المقالات بشكل مقارنات بين خلق او حالة فاسدة ، وبين الخلق او الحالة المطلوبة لتحقيق بعث امتنا العربية .

فإذا آمنا بان الأخلاق هي بذور البعث وّامنا بضرورة البعث وجب علينا إن نمارس هذه الأخلاق وان ندعو الشعب الى ممارستها ، أقول ممارستها ولا أقول التحلي بها لان الأخلاق في رأيي أعمال وليست صفات . والأخلاقي هومن يعمل وليس من يقبع في عقر داره او ينزوي في برجه العاجي او يعتزل الحياة في الدير . كما إن مدلول الأخلاق يجب ان يتخذ صيغة الإيجاب لا السلب ، فقديما كان يقال : لا تقتل ... لا تسرق .... الخ .وما نريده من أخلاق يجب ان يكون على صيغة الأمر بالعمل فنقول ... ثقف ... ونظم ..وناضل ..وأبدع ... الخ . وإذا ما حققت هذه الإعمال فان صفات السلب تنعدم نتيجة لذلك .

ولقد حاولت جاهدا إن ابرز هذه الأفكار في عبارة بسيطة ، لأنني لا أطلبها أخلاقا لفئة محدودة ، بل أريدها أخلاقا للمجموع وللفئات الشعبية خاصة وللشعبيين الذين يعملون على قيادة الشعب على الأخص.

المسؤولية – واللامبالاة ...

لكل جيل من الأجيال أخلاقيته وتربيته ، وهذه التربية وتلك الأخلاقية ، تنبثق إلى حد بعيد ، عن واقع الجيل وتاريخه من جهة ، وما ينطوي عليه من بذور الثورة على هذا الواقع من جهة أخرى .وشباب هذا الجيل يتصفون بصفات معينة ، منبثقة عن الظروف التي نشأوا فيها والتراث الذي حملتهم فيه السنون وعلى شباب هذا الجيل إن ينظروا إلى أنفسهم ليستشعروا حقيقة " العقلية " الأيدلوجية والتربية التي نشأوا عليها . وعليهم إن يتفحصوا بدقة وجدية ، نواحي الفساد في هذه العقلية والتربية ، ليتداركوا أنفسهم بالإصلاح والتقويم ، كما ان عليهم ان يتحسسوا بكل دقة وعمق ، بذور الثورة على الواقع السيئ المريض التي تكمن في طيات نفوسهم ، فيتعهدوها بالتنمية والتحقيق ويحيطوها بالأجواء الملائمة.

وليكن واضحا جدا إن على هذه العملية ، عملية الثورة على العقلية والتربية القديمة وتعهد بذور الثورة الحقيقة في النفوس ، بالتنمية والتحقيق – يتوقف الى حدج بعيد ، خروج جيلنا وامتنا ، مما هي عليه ألان .

ومن ابرز نواحي الفساد في عقلية الجيل السابق وأخلاقيته ، ذلك الجيل الذي تربى في العهد التركي عقلية اللامبالاة ، وعدم المسؤولية ، خصوصا في الشؤون العامة وأمور الحكم بشكل خاص .

ولقد ورث جيلنا الحاضر نسبة عالية من هذه الأخلاقية ، لذا فهو جيل متواكل إلى حد بعيد . إلا إن الحوادث الجسام التي أحاطت بهذا الجيل واخصها بالذكر دخول الجيوش الاستعمارية الحديثة الى البلاد ، وما رافقها من ويلات ونكبات ، وما أتيح لهذا الجيل من اتصال بالغرب ، قد هزت نفوس الجيل وبذرت فيها بذور الثورة على نفسها وعلى واقعها .

ومن أطيب بذور هذه الثورة ، الشعور بالمسؤولية ، ففي قرارة نفس كل شباب جيلنا الحاضر تكمن بذور الشعور بالمسؤولية ، وفي سلوك معظم أبناء شعبنا ما يشير إلى وجود هذه البذور . إلا إن تحسس الشباب بوجود هذه البذور في أنفسهم وتأثر سلوكهم بها متفاوت إلى حد بعيد ، ولكنه على كل حال يبشر بالخير من ناحية ، ويحتاج إلى تعهد كبير وعناية شديدة من الناحية الأخرى .

فيا أخي الشاب العربي ، إنا متأكد إن في قرارة نفسك بذرة الثورة على اللامبالاة وهي بذرة الشعور بالمسؤولية ، تناديك وتحفزك الى الاهتمام بما يجرى حولك من شؤون عامة ، اهتماما جديا لا تطفليا ، يحفزك إلى المشاركة في الشؤون العامة ومحاولة التأثير فيها بجدية وإخلاص.

ففي بلادك العربية حكومات تتولى تسيير شؤون البلاد ، مما له أعمق الأثر في حياتك ومستقبلك ومستقبل أبنائك ، فلا تنظر الى وجود هذه الحكومات وإعمالها ، نظرة اللامبالاة وعدم الاكتراث بل حاول ان تتفحصها بدقة تفحص من يريد إحداث اثر تقدمي عميق بها .

وفي بلادك مستعمر يحاول إن يبقي على الأوضاع الاستغلالية القائمة ، بما يصاحبها من كبت هذا الجيل أحكاما وضغطا . عن طريق خنق حرياته وإفقاره وتجهليه تارة ، وعن طريق ربطه بأحلاف استعمارية خانقة مدمرة تارة أخرى .

فعليك إلا تنظر الى الاستعمار وخططه نظرة المستسلم اليائس ، او المتفرج الذي لا يبالي بل نظرة الثائر ، الشاعر بنفسه وشخصيته ، المعتقد انه قوة فعالة . فيعمل كل ما في طاقته للثورة على الاستعمار وعرقلة خططه وبرامجه ، وقلبها رأسا على عقب .

ولا تظن إن هذا العمل هو من اختصاص من يسمون بالساسة بل هو عمل الفلاح والعامل والطالب والأستاذ وغيرهم من فئات الشعب بل هو عمل أبناء الشعب هؤلاء في الدرجة الأولى . هاتان ناحيتان من الشؤون العامة تستلزمان الجدية والشعور بالمسؤولية والمشاركة ، وهناك أمور كثيرة غيرها،كالحياة الفكرية والأنظمة والقوانين والاقتصادية والاجتماعية . فيا أخي الشاب العربي تنبه واستفق وشارك في شؤؤن الحياة وحقق وجودك في هذا الكون بالتأثير على الأجواء التي تحيا وسطها ، لتحقق مستقبلا حرا سعيدا لك وللأجيال ، وأبدا بطرد اللامبالاة من نفسك وتنمية بذور الثورة عليها ، بذور الشعور بالمسؤولية التي تحفزك على الانضمام إلى ركب المناضلين المنظمين في صفوف الحركة التقدمية الصاعدة، أو إلى الجدية والنشاط والفعالية إن كنت بدأت المشاركة فعلا.

الجماعية ... والفردية

حبنا لامتنا العربية ، وإيماننا بها ، ونضالنا من أجل بعثها ، واعتقادنا بأنها امة ذات رسالة ... أمور لن تحجب عن أعيننا مفاسد واقعها فنتجاهلها . بل تجعلنا نمعن النظر والعقل في هذا الواقع ، لنتبين نواحي الضعف والقوة فيه ... ذلك لأننا صريحون مع أنفسنا ، عالمون بأن امتنا العربية اليوم ، في حالة ضعف وتأخر ، وهذا يفترض ان تكون فيها نواقص وعيوب وأمراض .

ومن هذه الأمراض " العقلية الفردية " الموروثة ... التي لا تزال واضحة في الأغلبية من أبناء امتنا ولكننا مع ذلك نلمس في قرارة أنفسنا بذور الثورة على هذه الفردية ومحاولة تنظيم نضالنا ومجتمعنا على أسس جماعية تعاونية قومية إنسانية .

إن خط سير الحضارة الإنسانية يشير إلى إن الإنسان سائر سيرا حثيثا نحو التعاون والابتعاد عن الفردية والتنازع ، ومن الملاحظ أيضا إن أكثر الأمم تقدما هي أكثر الأمم تحقيقا للتعاون والإنتاج الجماعي بين جميع إفرادها وفئاتها . ذلك إن تحقيق الأمور الهامة الخطيرة لا يمكن إن يتم بعملية هينة يقوم بها فرد أو بضعة إفراد . ولا يمكن إن يتم على أيدي إفراد متفرقين ، كل يعمل في اتجاه خاص .

إن بعث امتنا وتقدمها وتأديتها لرسالتها لن يتحقق إلا على يد جماهير الشعب الواسعة التي تناضل متعاونة متساندة بشكل منظم ، وبالقدر الذي تنجح فيه في مقاومة روح الفردية ، وتربية النزعة الاجتماعية التعاونية ننجح في تحقيق أهدافنا القومية .

ربما كانت الفردية عندنا ناشئة عن تربية أجدادنا في الصحراء ، وربما كانت ناتجة عن ضعف ثقتنا بأنفسنا وببعضنا بسبب تأخرنا .وربما كانت رد فعل لفقداننا حريتنا كأمة ومحاولتنا التعويض عن ذلك بالتفرد . وربما كانت ناتجة عن جميع هذه الأسباب وغيرها إلا إن أهم نقطة تستحق إن نقف عندها هي قضية الحرية وموضعها من الفردية والجماعية .

فيجب إن لا تؤدي ثورتنا على الاستعمار والاستغلال والاستعباد إلى الثورة على روح التعاون وإذكاء الروح الفردية في نفوسنا ، وألا تناقضنا مع أنفسنا وابتعدنا عن مبتغانا وهي الحرية . هذه الحرية التي لا يمكن إن تنال إلا عن طريق والعمل الجماعي ،

والتعاون ككل خلق وتربية لا يمكن إن يتحقق إلا بالممارسة . لاشك إن إيماننا بالحاجة إلى التعاون أمر ضروري ولكننا لن نستطيع تحقيقه إلا إذا مارسناه في مؤسساتنا المختلفة في اللجان المدرسية ، في النوادي والجمعيات ، في النقابات والجمعيات التعاونية ، في النقابات والجمعيات التعاونية ، وأخيرا في الأحزاب والعمل السياسي المنظم . كما ان التعاون لا يعني فقط مجرد الانخراط في مثل هذه المؤسسات ، بل يقتضي الانسجام مع قراراتها وخططها وتنفيذها . كما يقتضي إن تحقق هذه المؤسسات خططها وأهدافها كمؤسسات ، لا ان تبرز فردية أعضائها على حساب إنتاجها وتقدمها ، بدعوى الحرية ...! فالحرية كمفهوم فردي لا يراعي المصلحة الجماعية العامة، ليست إلا الفوضوية المخربة . وهي بالتالي نقض للحرية .

أيها الشباب القومي ! لقد آمنت بوحدة أمتك يوم آمنت بالقومية وتحرر أمتك التي تحبها وتقدمها ، لن تتحقق إلا إذا غذيت بذور التعاون وأصبحت عقليتك ونظرتك إلى الحياة الجماعية ، وتعاون إفرادها فيما بينهم إلى ابعد حدود التعاون ، ولن يتعاونوا الا اذا فهموا معنى الحرية الحقيقي وتخلصوا من الفهم المغلوط لمعناها ، المتمثل في الفردية .

العملية – والنظرية

منذ أن وجد الإنسان في هذه الدنيا وهو يعمل في شتى نواحي الحياة ، من مادية واجتماعية وفكرية , ولا يوجد في الدنيا شخص خيالي " كحي بن يقظان " " أو روبنسون كروزو " يعيش منفردا منعزلا ينتج حاجاته بنفسه ويكون أفكاره ومعتقداته منعزلا عن الناس والمحيط . ولذلك يقيم الناس فيما بينهم علاقات اجتماعية تتطور باستمرار ، كما يتطورون هم أنفسهم في الوقت نفسه خلال هذا النضال الذي يخضونه في شتى نواحي الحياة .

ويتم التطور بشكل اصح واعم كلما زاد تفاعل الفرد مع المجتمع . وفي أثناء هذا التفاعل يؤثر الفرد في مجتمعه ويتأثر به ، فيحسن ويرتقي كل من الفرد والمجتمع .

أخي الشاب العربي : عليك ان تعتبر نفسك في حاجة مستمرة الى التغيير والتعلم والاكتساب . وان لديك القابلية لهذا التغير والتعلم والاكتساب ، ولذا يجب ان لا تنظر إلى نفسك كشيء كامل مقدس فوق ألإصلاح ، او لا يمكن إصلاحه .

إذ بدون ذلك يتعذر عليك إن تحرز أي تقدم . وعليك إن تتأكد إن تغيرك التقدمي لا يمكن إن يحصل بشكل عملي صحيح ، إذا قبعت في عقر دارك تدرس النظريات او تتخيل الأخيلة ، كما إن مجتمعك لن يتطور ويتغير إن لم تنزل إلى صفوفه مؤثرا فاعلا . عليك إن تتأكد انك عندما تحاول إفهام فرد ما نظرية ما تزداد هذه النظرية عمقا في نفسك وتزداد أنت لها إدراكا، وانك عندما تعمل في إدارة لجنة ما أو هيئة لناد أو جمعية تكتسب خبرة عملية لا يمكن إن تكتسبها بمجرد دراسة مؤلف في هذا الموضوع .

وعليك إن تتأكد أيضا إن خصائصك الكامنة التي تتميز بها عن غيرك لن تستطيع كشفها والاستفادة منها ، إلا بالممارسة والتجربة ففي كل إنسان خصائص ومزايا تختلف عن خصائص الآخرين ومزاياهم . هذه الخصائص وتلك المزايا لن تبرز وتصبح قوة يستفيد منها الفرد والمجتمع إلا بالتفاعل والنضال ، ولا شك أيضا إن المجهود الذاتي والتثقيف الشخصي وجهاد النفس إثناء التفاعل الاجتماعي أمور ضرورية جدا ولا يمكن الاستغناء عنها ليستطيع الشاب تغير نفسه وتحسينها ، فهي لذلك جزء من الروح العملية .

ولينتبه الشاب المناضل الساعي لخير أمته إلى إن يحافظ على توازنه دائما فلا تسكره نشوة الانتصار او يستولي عليه العجب والكبر عندما يحرز نجاحا او نصرا بتأدية خدمة قومية او تضحية .

فالنصر والنجاح واحترام الجماهير الواسعة وتقديرها له قد تجعل منه شاباً مستهترا متعجرفا ، وقد يصبح منحلا فاسدا فينعدم نفعه ويقف تجدده وتعلمه . ويتحول إلى عقبة تعوق تقدمه وتقدم المجتمع .

فيا من تعيشون في عزلة عن المجتمع ! ويا من تعتقدون إنكم إلهة كاملة لا ينقصها العلم والتجربة ! . ويامن تظنون إنكم اكتشفتم كل ما في أنفسكم من قوة وخصائص ! إنكم أموات ولستم إحياء ! إنكم خياليون نظريون على الأقل . ولن يكون لكم اثر يذكر على مجتمعكم وحتى على حياتكم ان لم تدخلوا طور التجربة والتفاعل مع المجتمع ، والتعلم وسط التجربة والتفاعل.

يا أيها الشباب الواعي المناضل العامل على بعث أمته وتحقيق شخصيتها وتأدية رسالتها ! عليكم إن تحطموا كل قيد او عقبة تحول دون تفاعلكم مع المجتمع ودخولكم حقل التثقيف والتجربة العملية الحياتية سواء كانت من داخل أنفسكم أو من خارجها.

عيشوا وسط الجماهير وتعلموا منهم وتأثروا بهم كي تستطيعوا إن تعلموهم وان تؤثروا فيهم وتطوروهم ، واجعلوا أنفسكم دائما على استعداد لتقبل الجديد والتطور في الأفكار والأساليب وفقا للتجارب المستمرة وبكلمة مختصرة . كونوا عمليين متطورين ، لا نظريين جامدين .

التقدمية .... والمحافظة

عقليتنا ما زالت محافظة ، شأن كل امة متأخرة . فالأمم المتأخرة عادة ، تتصف أكثر ما تتصف بروحية " أيدلوجية " محافظة يغلب عليها تأمل رواسب الماضي وبقاياه والوقوف عندها.

بل لقد تزيد على ذلك بقناعة ظاهرة أو مضمرة ، تعتقد معها إن هذه المحافظة على هذه الرواسب وهذه البقايا هي كل ما يضمن للأمة التقدم والنجاح .

إما الأمم المتطورة فتراها على العكس ، فياضة الحياة، زاخرة القوى ، فلا تستطيع ان تحبس وجودها في إطار سابق ، ولا في مفاهيم قديمة ولا في قيم عتيقة . بل تفيض حياتها وتطفى كالسيل الجارف على كل قديم بال ، لتعوض عنه بحديث مبتكر وجديد مفيد .

ويمكننا على سبيل المثال إن نذكر الأدوات التقليدية في الحراثة والفلاحة في البلاد العربية ، فهذه الأدوات قديمة جدا ، بحيث يذكرنا وجودها باليوم الأول الذي اكتشفت فيه الزراعة وبالأدوات التاريخية التي استعملها الإنسان فيها. او ليس في هذا الجمود وأمثاله ، دليل على ان الأمة العربية ما تزال في تأخر بالنسبة إلى الأمم الأخرى في شتى نواحي حياتها؟

وإذا ذهبنا في البحث الى ابعد من ذلك ، وجدنا المجتمع المحافظ يلهي نفسه بمشاكل سخيفة يصرف فيها نشاطه ويبدد عليها جهوده من غير ان يجني من ذلك ألا إضاعة وقته وتبديد جهوده .

فمازلنا نتجادل في القضاء والقدر ، وفي الجن والعفاريت والأرواح . بينما نرى الأمم المتطورة ، تبحث مشاكل الطاقة الذرية وطرق استثمارها .

حقا لقد بلغ أجدادنا وخصوصا في العصر العباسي الزاهر مستوى عال من التقدم في شتى النواحي ، ولكن هل يقتضينا إخلاصنا لتاريخنا وحبنا واحترامنا لأجدادنا أن نعطل عقولنا ونسير على نفس الأساليب التي اتبعوها ؟ فنستعمل أدوية ابن سيناء وهو حكيم عصره بدلا من البنسلين وان نحارب بخطط خالد بن الوليد وهو القائد الذي لم يغلب والذي نكن له كل إجلال وتمجيد واحترام ؟ هل نستعمل الجمال والعربات التي تجرها الخيل ؟ لان السيارة والطيارة من مخترعات الغرب ؟

قد لا يجادلنا كثيرون في ضرورة تغيير الأدوات القديمة بالأدوات الحديثة وكذلك الشأن في الأدوية والعلوم ، مع ان هناك من لا يزال يجادل ، ولكن هناك كثيرون جدا ممن يجادلون في ضرورة المحافظة على العادات البالية والنظم القديمة في الحكم والاقتصاد والإدارة . بل وفي النظرة إلى المجتمع والأمة ، وذلك فقط لان اجدادانا كانوا يسيرون عليها ، وتراهم يكتبون ويتفلسفون في الدفاع عنها وإبداء محاسنها المحافظة عليها . ويعتبرون الخروج عليها وإبدالها بما هو خير منها جريمة نكراء

إلى هؤلاء أوجه السؤال . لو فرضنا إن اجدادانا قد بلغوا الأوج في أنظمتهم الاقتصادية وكذلك في أنظمة الحكم ، ولكن إلا يمكن إن تكون في انظمتهم بعض النواقص ؟ الا يمكن تحسين هذه الأنظمة او وضع أنظمة أفضل منها واضمن لمصلحة البشر ؟ انظروا الى الذين اخترعوا الطائرة او الذين فككوا الذرة ، تجدونهم في اليوم التالي لنجاح اختراعهم ، يدرسون نواقص هذا الاختراع ولا تعميهم محاسنه عن ذلك بل تراهم يؤلفون اللجان لإيجاد ابتكارات جديدة تفوق السابقة وتتخطاها إلى حد بعيد فيوجدون بعد فترة قصيرة طائرات الاندفاع الذاتي ، ويفككون ذرة الهيدروجين .

وها هو النظام الرأسمالي الذي قدم أوروبا وأمريكا وجعلها أمما راقية غنية قوية . قد انتقد وهوجم وبدأ النظام الاشتراكي يحل محله .. فهل نظل نحن على نظامنا الإقطاعي الرأسمالي القديم ؟

أخي الشاب العربي ! يا من تريد بعث أمتك وجعلها في مصاف الأمم الحية المتقدمة السعيدة . اطرد من نفسك روح المحافظة . واكشف عن بذور التقدمية التي بدأت تنمو في نفسك بل وفي نفوس الجيل ، وتعهدها بالعناية التامة . ففيها تكمن القوة الدافعة التي تستطيع تحقيق البعث والإبداع ز تساءل دائما وأجب على هذا السؤال ، وانسجم مع جوابه . واخلص له : هل يمكن إن يوجد أحسن وأرقى وانفع مما هو موجود من أدوات وعلوم وأنظمة ؟...او ليس في الإمكان ، ابدع مما كان ؟ ... لا شك بأن الجواب نعم في الإمكان .

إذن فانتقد أدواتك وأساليبك وعاداتك ، وحسن علومك وطور أنظمتك وحطم أصنام الماضي السيئة فنتحرر ونبعث . يجب ان لا يكون مقياسنا " هل كان هذا في عصر أجدادنا ام لا" بل " هل يمكن تبديل ما كان وما هو موجود بما هو أحسن وانفع وادعى الى تحقيق الخير والعدل ؟" فأن تعاظمت في نفوسنا روح الإقدام ونمت بذور التقدمية ، تعاظم اندفاعنا في طريق التقدم ونحقق بعث امتنا ونحقق رسالة امتنا.

الشعبية ... والاقطاعية

عاش إباؤنا في عصر إقطاعي محكوم تسوده عقلية السيد والعبد ، قانونه الأخلاقي السيادة على من هم تحت . والعبودية لمن هم فوق ، وسيادة شيخ القبيلة أو المتصرف وعبودية إفراد القبيلة او الرعية سيادة مالك الأرض أو صاحب العمل وعبودية الفلاحين او العمال ، سيادة الموظف او الشرطي " الجندرمة خاصة " وعبودية الجمهور .

وجيلنا الحاضر قد ورث نسبة عالية من هذه النظرة "والأخلاقية" ولكن هناك من الناحية الأخرى ، بذر ثورة على أخلاق هذه العبودية وتلك الإقطاعية .

هذه البذور هي من بذور البعث التي يجب إن نكتشفها في نفوسنا وان نتعهدها بالتنمية ، ونهيئ لها الأجواء اللازمة لتكون عنصرا فعالا في تغيير واقعنا كأفراد وأمة . وأحوج ما يكون لهذه الثورة على العبودية والاقطاعية ، واحتلال الشعبية بدلا منهم . هم الشباب المناضلون في سبيل بعث امتهم كي يستطيعوا تحقيق عملية البعث هذه ، لأنها لن تتم إلا بالتعاون والتفاعل بين إفراد الشعب.

وحقيقة ما نعنيه بالشعبية في هذا المجال هو إن تكون نظرتنا نظرة إنسانية تحترم الفرد ولكنها لا تؤلهه ، أو تحتقره ... وتنظر إلى جميع أبناء الشعب كرفاق واخوان كل يؤدي واجبات اجتماعية ضرورية ، فلا فوق ولا تحت ، لا رهبة من المسؤولين ولا غطرسة على التابعين ، بل كل يؤدي عمله المتمم لعمل الأخر متعاونا مع الجميع في جو من المحبة والصفاء ، يجب إن نتخلص من عقلية الراعي والقطيع ، عقلية المولى والرعية . ونحل محلها عقلية المواطنين أبناء الامة الواحدة .

أخلاقيتنا القديمة البالية تعتبر الزوجة تجاه الزوج ، او الابن تجاه الأب ، أو التلميذ تجاه المعلم او الموظف تجاه رئيسه عبدا مأمورا مسخرا يجب ان يكون على اتم الاستعداد لتلقى الأوامر من فوق بصيغة الغطرسة والتأله ، وعليه ان ينفذها بروح الطاعة العمياء والعبودية الذليلة ، دون ان يكون له حق التفكير او الاعتراض.

بل وعلى التابع في كل مناسبة ان يقدم فروض الإجلال والاحترام ويظهر شتى مظاهر العبودية والتذلل . ان أخلاقياتنا القديمة زيادة على كل ذلك .، تجعل التابع ينظر لمن هو فوق بأنه صاحب الحق في الأمر النهي الكيفي ، وبالاختصار نظرة العبد الذي رسخت في نفسه أخلاق العبيد واستقدمت ، ولذا نراه يقدم فروض الطاعة والولاء والعبودية دون ان يكلف بها.

ويجب ان نلاحظ ان اخلاقية الغطرسة والاستعلاء هذه تظهر في كثير من الاحيان عند بعض المتعلمين الذين يظنون انهم حققوا المعجزات . فهم لذلك متعجرفون متغطرسون . يحتقرون الناس أجمعين ولكن البعض منهم في نفس الوقت اضعف ما يكون إنسانا ، وأذل من العبيد ، تجاه رئيس أو صاحب سلطان

ومن مظاهر العقلية والتربية الإقطاعية هذه ما نبديه أحيانا من مظاهر الفروسية الفردية والاعتزاز وحب الظهور الشخصي . فنغضب ونثور لأمور شخصية تافهة

ونزهو ونعجب لنجاح فردي محدود ... وفي نفس الوقت قد ننزل الإهانات المتلاحقة او تحل النكبات الجسام بأمتنا كجماعة ، دون إن يهز ذلك وترا من إحساسنا هزا يحفزنا على العمل.

ومن مظاهرها ما نشاهده من كرم فردي وبذخ في مظاهر حياتنا الشخصية ، وفي نفس الوقت بخل وتقتير شديد فيما تدعونا اليه المصلحة القومية العامة . هذه أخلاق يجب ان تزول . ونحن نعلم انها باقية الى حد بعيد ما بقيت أحوالنا الاقتصادية والسياسة القائمة .

ولكننا ندعوا المتطورين من أبناء الشعب لان يدركوا في أنفسهم روح الثورة على هذه العقلية ، لان فيهم بكل تأكيد بذور ثورة قوية عليها . وعليهم إن يعيشوا اخلاقهم الثورية هذه وسط المجتمع لكي يثيروه ويطوروه.

هذه الأخلاقية التي ندعو لها والتي نسميها الأخلاقية الشعبية او الديمقراطية ، لن تنمو في نفوسنا بمجرد قراءتنا كلمة كهذه الكلمة او بمجرد اقتناعنا بضرورتها .

فقراءتها ربما تكون قد تكررت وضرورتها قد أصبحت بديهة . ولكن علينا ان نمارس العمل بها عندما نعامل رئيسا أو مرؤوسا ونراقب أنفسنا اشد المراقبة لنعرف حقيقة ما نفعل ، وستمضي حقبة من الزمن قبل ان يستطيع الجيل الخروج من هذه التجربة .ولتحقيق هذه الأخلاقية أيضا يجب ان نستمع بين فترة وأخرى إلى انتقادات زوجاتنا او أبناءنا او عمالنا وموظفينا، وان نشجعهم على توجيه هذه الانتقادات بشكل رصين جرئ وإذا ما فعلنا ذلك فستتم فائدتان في وقت واحد الاولى ان نتبه الى أخطائنا فنعمل على إصلاحها ونقلل من غطرستنا وكبريائنا نحو من يعيشون معنا ، والثانية ان نقوي شخصيتهم ونخلصهم من روح العبودية . وعلينا بدورنا ان نقوم بنفس عملية النقد هذه نحو من هم مترئسون علينا ، وكنتيجة لذلك يجب ان ننسف عقلية وتربية ما يمس " تابع " ومتبوع بالمعنى العبودي .

وأننا ولا شك أحوج ما نكون لهذه الأخلاقية الجديدة في معاملتنا لمستعمرينا الذين مازال المسئولون منا يعاملونهم وكأنهم قضاء الله الذي لا مفر منه او الإلهة المعبودة . وما زال السواد الأعظم من الشعب ينظر إليهم نظرة الخوف والعبودية . علينا كأفراد وكأمة إن تثور على علاقة العبودية هذه مع مستعمرينا ، وان نحطم هذه الأخلاقية الذليلة . فقد طلع النهار وكسرت القيود وتحرر العبيد . فالي متى يظل النير في أعناقنا والقيد في أرجلنا ، والسوط يلهب ظهرنا .

الإبداع ... والتقليد

المجتمعات الحية المتقدمة المتطورة تتدفق حياتها مندفعة كالسيل ، جارفة كل عقبة ، متخطية كل حد ، مبدعة وسائل ونظريات جديدة، منبعثة من تجربتها الحية ، وشعورها الحي ، الذي يعرف ما يريد حق المعرفة فيخلق ما يشعر بالحاجة إليه ، ويبتكر ما يتناسب مع تقدم حاجات الحياة وتطورها . وهي إن نظرت الى الماضي ، فهي تفعل ذلك لا لتقلده بل لترقى عليه وتتجاوزه . وهي ان نظرت الى الحاضر فإنما تفعل ذلك لا لتعجب به وتقف طويلا لتتأمله ، مزهوة به ، بل لتتخطاه ، وتبدع ما هو اسمى وأنفع .

ومجتمعنا العربي اليوم لا يستطيع الا ان يلقي نظرة على الماضي ، ماضي الامة العربية وغيرها من الامم . كما لا يسعه الا ان يلقي ، نظرة أخرى على الحاضر ، حاضرنا وحاضر الامم المتقدمة المتطورة . وهو بطبيعة الحال يسعى للتقدم والتطور ، لا للمحافظة والجمود.ولقد تحدثنا عن ذلك في كلمة سابقة ولكن من المهم ايضا ان تكون نظرتنا وعقليتنا مبتكرة مبدعة وليست مقلدة جامدة .

فاذا ما وجدنا في الماضي او الحاضر ما هو نافع مما قد يصلح لنا ولهذا العصر, من علوم وآداب او ثقافة وفلسفة , او ادوات ومخترعات ,او انظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية , فان من واجبنا ومصلحتنا ان نقتبسه , وفقا لسنة التقدم ووفقآ لحاجاتنا الخاصة و ظروفنا الخاصة , كما يجب ان نبتكر بعض الاشياء التي لم تكن موجودة اصلا.

ولسنا الان في وضع يمكننا من تحقيق ابتكارات علمية او صناعية ذات شأن , بل ان مرحلتنا التاريخية أيضا, ليست هي مرحلة الإبداع في مثل هذه الأمور. وإنما مرحلة جيلنا العربي على وجه الدقة هي مرحلة تحرر.

وجيلنا هو الجيل الذي وكل اليه قدره ان يحقق حرية الأمة العربية من الاستعمار والاستغلال والاستبداد , حتى تستطيع السير في معارج التقدم, ولهذا نخصص القول هنا الى ضرورة الابتكار والأبداع في وسائل وأساليب النضال من أجل الحرية.

ونحن لا نستطيع تحقيق هذا الابداع الا اذا توفر لنا أمران الأول هو الإطلاع الواسع الكامل على أساليب التنظيم والنضال التي اتبعتها الحركات التحريرية السابقة وجربتها. والثاني هو دراسة أوضاعنا الخاصة وظروفنا الخاصة وامعان النظر بحرية فيما يمكن أن نستنتجه من تجارب من سبقونا فنرتفع بها ونطورها, ونبتكر ما هو أرقى منها.

قد يكون في الأساليب التي اتبعها العرب في تحقيق وحدتهم ونهضتهم في القرون الوسطى ما يفيد. وقد يكون في التنظيم وأساليب النضال التي اتبعها,والأفكار التي آمن بها رجال الثورة الفرنسية أو الأمريكية او الاشتراكية أو في نضال أو أفكار غاندي ورجال حزب المؤتمر في الهند أو غيرهم,ما يمكن أن نستفيد منه اذا اقتبسناه و عملنا به. وقد يوحي الينا وضعنا السيئ الضعيف الحاضر,بأنا عاجزون عن الابتكار واننا نكون قد عملنا كل ما نستطيع اذا ما طبقنا أساليب وأفكار من سبقونا من الثائرين المتحررين.بل قد يتشكك البعض حتى في إمكانية تحقيق ذلك. ولكن الى جانب هذه الروح التشاؤمية العاجزة تكمن بذور القوة الدافقة والابداع في نفوس الجيل .وهي بذور يجب ان نتعهدها, لأننا حتما نستطيع أن نبدع في هذا المضمار ولأن أهدافنا قد لا تتحقق اذا نحن اعتمدنا على التقليد فقط.

ومما يزيد في يقيننا أننا نستطيع أن نبدع , ظهور حركات عربية تحررية اصيلة في وطننا, تعتبر في فكرها وأسلوبها ابداعآ جديدا. وأنها ما تزال تبدع في كل يوم وباستمرار .ولذا يجب ان يعمل كل فرد منا على الإتقان والابداع من جانبه في أساليب تنظيمنا وتطبيقاتنا العملية, وسيرنا وتفكيرنا العملي, ونضالنا الشعبي. وأن نجدد ونرقي باستمرار في الأساليب التي اتبعناها حتى الآن وأصبح بعضها روتينيآ لدينا. وعلى جميع الشباب المناضلين ان يفهموا الحركة العربية على هذا الشكل , وأن يساهموا في الابداع فيما يتعلق بقسطهم من العمل والواجبات والنضال ,ليتحقق البعث وتتحقق الرسالة.

النضالية و الانتهازية

عندما تنقلب الأوضاع ويسود الاضطراب في امة من الأمم, نتيجة وضع استعماري استبدادي , تنشأ فئة من الناس على التزلف والنفاق بل وطعن المصلحة القومية العامية في سبيل تحقيق أغراض شخصية أو عائلية, ضاربة عرض الحائط بكل اعتبار خلقي أو مصلحة قومية شعبية, غير حاسبة أي حساب للمستقبل حتى مستقبلها هي بالذات في المدى البعيد. تعيش يومها في النفاق والمداهنة للمستعمر أو المستبد , والدس أو الخيانة للقضية القومية,لتكسب في مقابل ذلك , رخصة استيراد أو مركزا حكوميا يفسح لها المجال للرشوة والأثراء الحرام أو استصدار قوانين تمكنها من احتكار قوت الشعب وامتصاص دمائه.

هذه الفئة من الناس هي الفئة الانتهازية التي تشعر بان النضال في سبيل تحقيق مصلحة الأمة عامة أمر صعب أو غير ضروري, وترى في الانتهازية طريقآ مختصرآ يوصلها الى اغراضها الخاصة بسرعة.

وهي فئة مجرمة تظهر في كل امة في مثل وضع امتنا .ونحن الذين نسعى لبعث امتنا من رقدتها مدعوون ,بل والشعب العربي عامة مدعو لمحاربة هذه الفئة وتفسيخها وهدمها في النهاية. وان واجبنا أيضا يقتضي أن نربي الجيل في بيوتنا ومدارسنا ومؤسساتنا الاجتماعية, على احتقار الانتهازية واعتبارها خلقا شائنا وأمرا معيبا ولن يتم ذلك بالوعظ والإرشاد فقط بل بالتربية القومية, وخلق القدوة الحسنة, وتربية الناشئة تربية نضالية تجعلهم يؤمنون ان الطريق الصحيح لتحقيق المصالح الخاصة هو طريق النضال في سبيل خير المجموع.

تتمثل الانتهازية في الدرجة الأولى من البرجوازيين أصحاب المصالح الخاصة.أما الفئات الشعبية فهي بعيدة عنها في الغالب . وذلك لان أصحاب المصالح يستفيدون من الفساد ويعيشون عليه. والنفاق بالنسبة اليه ضرر قريب في معظم الاحيان ولا يحقق أهدافه العامة أو حتى الخاصة.ولذا فانه في بحكم العقل وحكم المصلحة,لا يسلك المسلك الانتهازي , بل ينظم صفوفه ليناضل ضد الاستعمار والفساد والاستبداد والاستغلال والانتهازية نفسها.

وهنا تمر بالمناضلين تجربة خطيرة.فبعض قادتهم يصبحون وقد أحرزوا مركزآ شعبياً مرموقا وقوة فعالة في حياة البلد ,عرضة للوقوع في الانتهازية,بما قد يساومهم عليه أعداء الشعب, من قضاء مكاسب أو مصالح , أو اعطائهم بعض المناسب لقاء الانحراف بالحركة النضالية أو اضعافها أو التخلي عنها وعن النضال.وهذه الحالة من أخطر حالات الانتهازية,وواجب الشعب مراقبتها وقتلها في مهدها كما أن من واجب المناضلين المخلصين أن لا ينجروا اليها. لأنهم بذلك يسيئون الى نفسهم ويجرون على بلادهم وأبنائهم أفدح الكوارث .

الا ان الشعب وحتى القادة يقعون أحيانا في خطأ جسيم بشكل معكوس ، حين يظنون ان كل مناورة أو مصالحة مؤقتة هي انتهازية ، وكل قبول بشيء كم الطلبات الشعبية ينقص عن الطلبات الشعبية الكاملة ولو مؤقتا انتهازية . وكل مهادنة لفئة من أخصام الشعب بغية تفسيخهم او منازلتهم واحدا واحدا انتهازية

يعتبرون هذه الأمور انتهازية ويسمونها حتى بالخيانة ولو لم تكن قد أدت الى كسب شخصي للقادة .

ويحاولون منع القادة عن السير في هذا الاتجاه وقد يكونون في ذلك ضحية مناورات من أعداء الشعب فيحرمون الامة من كسب أي تقدم ، ويظنون ان الإخلاص يقتضي ذلك ، والحقيقة انهم يكونون بذلك نظريين سلبيين ، وليسوا مناضلين ماهرين . وكأحسن مثال على ذلك أذكر القارئ بقصة الرسول صلى اللّه عليه وسلم " في صلح الحديبية ، الذي كان مصالحة موفقة انتقدها كثيرون من الصحابة ولم تظهر فوائدها الا فيما بعد .

فالمناضل الماهر بعد ان يشن حملة شعبية ، قد يرضى بطلبات شعبية جزئية تتناسب مع إمكانية الشعب في مرحلة من مرتحل النضال ، لا ليقف عند حدها ويعتبرها النهاية ، بل ليجعلها قاعدة ونقطة ارتكاز يندفع الى نضال جديد والمطالبة بمطلب شعبي اعلي ، وهلم جرا وبذلك يزداد قوة وتقدما ويزداد الشعب املا في النجاح وبالتالي يزداد عزما وتصميما على بلوغ مطالبه العليا.

والمناضل الماهر المدرب ، قد يلجأ أحيانا لمهادنة بعض أخصامه لتفكيكهم عن بعضهم البعض ومنازلتهم واحدا واحدا بل وقد يستطيع بمهادنة بعضهم ان يضربهم ببعضهم . وخير مثال على ذلك تعاون روسيا مع المانيا ضد انجلترا في المراحل الاولى من الحرب العالمية الثانية ، ثم تعاونها مع انجلترا ضد المانيا .

... وهذا ما اصبح يسمى " بالتكتيك " النضالي . وهو امر مباح وواجب شريطة ان تراعى الأمور التالية :

- أن لا يقوم على المكاسب الشخصية .
- أن لا يؤدي الى التنازل نهائيا عن احد المطالب الشعبية
- أن لا يعتبر الاصلاح مطلوبا لذاته بل وسيلة لزيادة القوى المناضلة وتوسيع جبهة النضال .
- أن لا يؤدي الى إكساب احد أخصام الشعب ثقة الشعب واعتماده عليه.
- أن لا يعود بالقضية القومية الى الوراء .

التضحية و الأنانية

عندما تبدأ الأمم بالتيقظ والوعي , لا يمكن أن يكون جميع أفرادها وفئاتها في نفس المستوى من الوعي, لاختلاف الظروف الخاصة المحيطة بكل منهم. لذلك نجد بين الشعب عادة من نسميهم برجال الطليعة. وهم أفراد من الشعب, أتاحت لهم ظروف اقتصادية وثقافية وتربوية خاصة, ان يسبقوا غيرهم من أبناء الشعب , فتفتحت عيونهم على واقع امتهم أكثر من غيرهم , ولذا تراهم يشعرون بضرورة القيام بأعمال قومية معينة,قد لا يشعر بضرورتها سواد الشعب .

وترى الشعب في نفس الوقت , بعد ان يلمس ذلك الوعي فيهم يتطلب منهم ان يعملوا,ولو انه قد لا يعرف بالدقة نوع العمل المطلوب.

ورجال الطليعة المتطورون هؤلاء, لم يهبطوا من السماء ولا جاؤوا من عالم مجهول , بل نشأوا وسط جيلهم ,لذلك فأنهم دائما يحملون نسبة متفاوتة من عيوب ذلك الجيل. والأمم المتأخرة عادة تتصف فيما تتصف بالأنانية والابتعاد عن كل ما يبدو انه ضد المصلحة الفردية , ولذا نجد ان نسبة غير قليلة من رجال الطليعة هؤلاء رغم وعيهم على واجباتهم القومية الإنسانية يحجمون عن القيام بهذه الواجبات او يترددون . وذلك لأنهم من جهة مشدودون الى الوراء بحكم أخلاقية الجيل الذي عاشوا وسطه, ومن الجهة الأخرى لأنهم يشعرون إن البدء يتطلب منهم شيئا من الجرأة وأن يضحوا فعلا بشيء من مصالحهم الفردية , من اقتصادية , ورفاهية , في سبيل المجموع .

وامتنا العربية اليوم وطليعتها المناضلة خاصة , تقف على هذا المفترق.فإما إن يحجم طلائعها وينطوون على أنانيتهم ومصالحهم الخاصة ضاربين بذلك أسوأ مثل للشعب , وبهذا يظل وضعنا_كما هو _وضعا استعماريا استغلاليا ذليلا ميتا.وإما ان يقبل الطلائع والشعب عامة على التضحية في سبيل بعث الامة , فيتحملون شظف العيش , وإرهاق الواجب , وإرهاب المستبدين والمستعمرين ويستهينون بذلك في سبيل جيلهم وأبنائهم وأمتهم ,بل وفي سبيل الإنسانية.

وأننا رغم الأنانيات المتراكمة حولنا كالظلمات, لنلمح في مجتمعنا العربي , بريق التضحيات هنا وهناك , وتوهج العزائم الصادقة التي لا تبالي بالعقبات.و ونسمع حاذي القافلة ينادي.

((نحن إن لم نحترق كيف السنا يملأ الدنيا ويهدي كل ركب))

والتضحية خلق إنساني أصيل, مركب في كل نفس لانه ينبع من الحب الذي هو اسمي الصفات الإنسانية, وأكثرها أصالة ولذا فليست التضحية شيئا طارئا أو شاذا, ولكنها قد تبدو كذلك وسط ظلمات الرجعية والتأخر ويحدثنا تاريخ الأمم , ان بذور التضحيات عندما تبدأ في الظهور في امة ما, لا تلبث ان تصبح تيارا دافقا يجرف إمامه كل العقبات . ولقد بدأت طلائع العروبة في تقديم التضحيات مجددا منذ فجر هذا القرن , بل وقبله بقليل, وها هو تيارها يزداد وسيلها يتدفق ولا بد إن يأتي اليوم الذي تصبح فيه الضحية خلقا عاما وسيلا عارماً , وعندها لا بقاء لا استعمار أو استغلال أو رجعية.

وأقول ((لا رجعية)) لأن التضحية لا تشمل فقط تعريض المصالح الخاصة للخطر في سبيل المجموع . بل إننا نرى فيها شيئا ابعد من ذلك , إننا نرى فيها التضحية بما ربيت عليه النفوس من عادات وتقاليد سيئة الأثر في الحياة العامة . فالطائفية وانقسام الأمة مثلا الى طبقات مستغلة وضع وعادة ينظر إليها جيلنا كأنها قضاء محتوم أمر طبيعي . ولعل من التضحية ان يفهم المستغلون أن واجبهم الإنساني بمركزهم الاستغلالي هذا في سبيل تقدم أمتهم التي هم إفراد منها . والتضحية ليست مادية فحسب , بل هي معنوية أيضا فان ضرورات الحياة والتطور , تفرض على كل إنسان , في ظروف مختلفة ان يتنازل عن عاداته ومفاهيمه القديمة المهلهلة التي يستفيد منها بعض الفوائد الخاصة , تمهيدا لإحلال عادات ومفاهيم جديدة , أنفع في الحياة أثر وأكبر قيمة و ليس من الغريب أن تكون التضحية أحيانا ظاهرية أكثر منها حقيقة اذ يمكن ان نلاحظ بسهولة ان المضحى لا يخسر من نفسه شيئا إلا وتسدده له التضحية بشكل ما إضعافا مضاعفة , والحق ان من يتطوع لتضحية شيء من نفسه او مادته , يرتقي بتضحيته نفسها الى مستوى نفسي عال جدا لم يكن ليبلغه بغير التضحية.

وأخيرا إذا ما دعا الداعي وأصبحت حرية الأمة وبقاؤها في خطر هان كل شيء وأصبحت التضحية بالعرق والروح والدم , سعادة لا يمكن ان يشعر بها إلا من مارسها وعاش في جوها . فإلى العمل والتضحية يا شباب العرب.

الشجاعة و الخوف

أيها الصابرون ، الصامدون للهجمات أثناء الاستعداد للمعركة الفاصلة ! انتم الشجعان ! أيها الذين يكرون ويفرون اثناء التدريب القوي لكسب الوقت للاستعداد وأنهاك الخصم ! انتم الشجعان !

أيها الذين لا يهابون ان يتراجعوا لإعادة تنظيم الصفوف وحشد القوى والعودة للهجوم ! وإنهاك الخصم ! انتم الشجعان !

أيها الواثقون بأنفسكم وبانتصاركم في النهاية ، رغم جميع مظاهر الضعف واوهن والفقر ! انتم الشجعان !

عرفت الشجاعة منذ زمن بعيد , وكذلك الخوف . والشجاعة من الأخلاق التي تبرز في الأمم الصاعدة وتتقلص في الأمم المنحدرة في نكساتها ولذا فالشجاعة أمر أصيل والخوف نكسة لان الحياة في صعود.

إلا أن مفهوم الشجاعة ومدلولها عرضة لإساءة التفسير , وكثيرا ما سمي التسرع والطيش والتهور , بل حتى اضطراب الأعصاب والخوف نفسه شجاعة . كما أن أخطاء كثيرة يقع فيها الشجعان أنفسهم تتعلق بترتيب الإعمال التي تتطلبها الشجاعة من حيث الأهمية, فيقدمون على عمل ليس هو الأول في الترتيب أو ليس هو عمل المرحلة ويعتبرون عملهم هذا شجاعة

ولن أستطيع في هذه الكلمة أن أعالج موضوع الشجاعة من جميع وجوهه, ولذا فقد لخصت الموضوع في أول الحديث ,ولكنني بحاجة الى التفصيل فيما هو موضوع الساعة . فلقد ارتفعت أصوات مبحوحة في عالمنا العربي هنا وهناك. تنادي بالاستقرار" وهي تعتبر كل حركة تشويشا وكل تغير او تبدل , تقلبا وفوضى, وهم لذلك يندون بظهور الأحزاب المبدئية ويعتبرونها انقسامات ضارة. ويندون بالصحافة الحرة الجريئة , ويعتبرونها فوضوية مخربة , ويندون بالتحركات الشعبية كالمؤتمرات او المظاهرات ويسمونها هدامة. بل ويندون حتى بأبسط مظاهر التنظيم كتشكيل النقابات والأندية والجمعيات.

ولا غرابة ان يعمل الاستعمار وأنصاره ومن يسبح في فلكه على ذلك لان الاستقرار كما يفهمونه هو بقاء الأوضاع الفاسدة الراهنة على ما هي عليه , ليظل استغلالهم وترفهم مستمرين ولا يعنيهم أن ذلك يعني استمرار الفقر والبؤس والضعف والجدب.

ولست أناقش هذه الفئة لان من طبيعة الأشياء إن تدافع هذه الفئة عن الوضع القائم , وهي لن تتنازل عنه إلا مرغمة نتيجة لنضال الشعب الذي سيطيح بها , ولكنني أريد أن أخاطب جماهير الشعب المتضررة من هذه الأوضاع متسائلا هل من مصلحتها أن يظل ما هو كائن على ما هو عليه؟ . وبذلك يظل فقرنا وذلنا وخوفنا من المستقبل المجهول قائما. فان كنا لا نرض باستمرار الحال , بل ونريد التغيير الشامل العميق , علينا ان نعرف أن ذلك يقتضي مرور فترة مضطربة مائعة,هائجة مائجة , غير مستقرة قد تبدو لمن ينظر إليها نظرة سطحية, أسوأ من الوضع الذي كان يسبقها, ولكن المفكر البصير الشجاع يرى فيها العملية الجراحية التي لا بد من استعمال المشرط والأدوية الكاوية والعلاجات المرة فيها, والتي لا بد من أن تسيل فيها بعض الدماء , وترتفع بعض صيحات الألم العالية, وهنا موضع البحث في الشجاعة.فان كنا هيابين وجلين مترددين.جبنا عن خوض هذه المرحلة وناديبنا بهذا الاستقرار المريض المميت. وان تحلينا بالشجاعة الصحيحة لم نتهيب قلقلة الأوضاع واضطراب الجو من حولنا وهبوب العواصف , وإثارة الغبار.

والذي يمعن النظر في مجتمعنا العربي اليوم يجد فيه بذور الشجاعة هذه , بذور الثورة على الاستقرار المريض والاندفاع في تيار قلقلة الأوضاع الفاسدة القائمة تمهيدا لقلبها , غير عابئين بما يصاحب ذلك مما يسمونه عدم استقرار . وهم بذلك وبطبيعة الحال , لا يطلبون عدم الاستقرار هذا بما يصاحبه من جهد وتضحية , لا يطلبون عدم الاستقرار هذا بما يصاحبه متاعب ومشاكل وما يتطلبه من جهد وتضحية لا يطلبونه لذاته , بل لما سيتلوه من وضع سليم صحيح متقدم , يحقق الخير المادي والمعنوي لأغلبية الشعب الساحقة وينهي عهد الاستغلال والاستعباد والاستبداد ويفسح أوسع المجال للسعادة والسلام والإبداع.

فالي هذه الشجاعة، الشجاعة في مواجهة مرحلة الانتقال المضطربة غير المستقرة ,بل الى الشجاعة في رفع درجة حرارة هذا الذي يسمونه عدم استقرار , والى توجيهه أحسن التوجيه أدعو المناضلين العاملين والشعب عامة ولنطرح الخوف جانبا فليس في أيدينا ما نخاف عليه سوى الأصفاد التي تكبلنا, فان كان عدم الاستقرار سيفقدنا إياها فنعم ما هو .

الأخلاقية و المكيافليه

اجتاز جميع العالم منتصف القرن العشرين بعد الميلاد من الناحية الرقمية , ولكن مجتمعنا العربي مازال يعيش في ظروف تشبه الى حد ما ظروف مجتمع القرون الوسطى في أوروبا من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

والظاهرة الرئيسية الجديدة التي تسترعي الانتباه في القرن العشرين , هي هذا الازدياد الكبير لأهمية مركز الشعب في الدولة وازدياد نفوذ الطبقات الشعبية ازديادا كبيرا بعد زوال عهد الإقطاع وحكم الفرد , او ضعفه وانحداره نحو نهايته. وقد أصبح مجتمعنا العربي اليوم يتجه الى هذه الشعبية رغم ما أشرت إليه في أول كلمتي.

ومكيافلي كاتب ايطالي وسياسي شهير 1469-1527 (Nicolo Machivalli إلف كتابا شهيرا يسمى الأمير 1513 principe)) قدمه لأحد أمراء ايطاليا من آل دي مديتشي يحتوي على نظريته في الحكم والسياسة مما يتناسب مع احتياجات الحكم الاتوقراطي الذي يعتمد على الكذب والغش والغدر والخديعة ويعتبر عجينة في يد الحاكم يشكله كيف يشاء وكيفما شاءت مصلحته , وعلى وجه الإجمال فانه لم يتورع عن النصح بالأخذ بأي وسيلة من وسائل التضليل والفساد والإرهاب والكبت ليمكن الأمير من المحافظة على ملكه(التعيس) وتحقيق غاياته الخاصة.

وعن ميكافلي أخذت الجملة المشهورة (الغاية تبرر الوسيلة) كما أن السلطان عبد الحميد الثاني وحكمه الفاسد يمثل المكيافلية في التطبيق.

وفي عهد عبد الحميد ومدرسته المكيافلية تربى عدد من ساسة عصرنا ولا نزال نرث حتى اليوم شيئا من هذه التركة الخبيثة ممثلة في بعض ساسة هذا العصر وزعمائه, بل وفي عقلية الجيل الى حد ما, فترى الكثير من الناس يعمدون الى أحط أنواع الكذب والفساد والتضليل والرشوة لستر خططهم الرامية لجلب المنافع الشخصية او العائلية التي قد يسمونها خدمة الشعب . وترى بعضهم يردد الغاية تبرر الوسيلة وكأن هذه الجملة آية لا يشك في صحتها وقاعدة في السياسة يجب أن تتبع .

هذا الخلق السيئ المخرب الذي جاء في الاصل ليحمي حكم الأمراء المتفردين في الحكم ما يزال موجودا في مجتمعنا بالفعل , ولكن الى جانب ذلك نرى بذور الثورة على هذه التربية وهي بذور الأخلاقية التي ترى ان الاسلوب أو الوسيلة يجب أن تنسجم مع الغاية فإذا كان الأسلوب أخلاقيا شريفا عرفنا حتما انه سيؤدي الى نتائج شريفة نافعة والعكس بالعكس . هذه البذور أصبحت قائمة بشكل مجسم في مجتمعنا وهي آخذة في النمو وهي ولا شك من بذور البعث التي يجب أن نتعهدها فينا لنخرج من وضعنا الاستعماري الاستغلالي الفاسد اى وضع حر سليم سعيد.

والحقيقة إن الأخلاقية في السياسة تسير جنبا الى جنب مع الشعبية والإيمان بالشعب . فالساسة او الحكام او القادة الذين يحتقرون الشعب ويعتبرونه كمية مهملة او آلة مسخرة لقضاء شهواتهم ومصالحهم او سلما لكي يرقوا عليه . هم الذين يلجأوون الى المكيافلية بما تعنيه من كذب وخداع وغش وفساد ليستروا أهدافهم الدنيئة عن الشعب لأنها ليست في مصلحة الشعب.

أما الساسة أو القادة أو الحكام الشعبيون الذين يؤمنون بالشعب ويسعون لخيرة فيما يفعلون أن لاقوه لهم إلا بالشعب لذلك فهم دائما يسلكون معه مسلكا أخلاقيا بما يعنيه ذلك من صدق وصراحة واستقامة فلا يضللون ولا يخادعون الشعب بل يعلنون له عن آرائهم وخططهم ليفهمها ويؤمن بها اذا اعتقد بصحتها وبالتالي يعطيهم ثقته ويندمج معهم في النضال الذي يكون حتما نضالا من الشعب ولمصلحة الشعب. فالسياسي الذي يسمح لنفسه مثلا أن ينجح في الانتخابات بالرشوة أو بالتزوير أو بإعلان

برامج كاذبة لا يتقيد بها , ليس بأخلاقي بل مكيافلي وهو لذلك لا ينتظر ان يخدم الشعب اذا ما وصل الى مقعد النيابة او كرسي الوزارة , بل سيعمد الى خدمة مصالحه الخاصة وخيانة مصلحة الشعب , وقس على ذلك باقي الأمور.

ولكن هناك خلطا بين المكافلية والتكتيك , فالمناضل الحر الشعبي الصادق لا غنى له عن استخدام التكتيك في عمله النضالي . ولا يجوز أن يفهم التكتيك على انه المكيافلية التي هي تضليل الشعب بما تحويه من كذب وخداع وغش , والتكتيك هو الخطط التفصيلية التي توصل الى الهدف بما يعنيه في ذلك من كر و فر او مصالحة ومهادنة مؤقتة للحصول على نتائج من شأنها ان توسع جبهة النضال وتؤدي الى النجاح.فالمناضل الشعبي الماهر قد يلجا احيانا لمهادنة بعض اخصامه مؤقتا ليهاجم خصما اشد خطرا ثم ينثني على الخصم الأخر . ولكنه في نفس الوقت لا يغش الشعب بمن هادنهم فيعلن له إنهم مخلصون له مثلا. فيا شباب البعث كونوا أخلاقيين في مسلككم وافهموا الشعب ان جملة (الغاية تبرر الوسيلة) مفسدة من تراث القرون الوسطى الفاسدة. كونوا صادقين صرحاء مع الشعب وافهموه وفسروا له كل عمل من إعمالكم ولو ان ذلك أمر شاق ليعرف أنها في صالحه ويوليكم ثقته على أساس ذلك. لأنه بغير كسب ثقة الشعب والنضال معه لن تتحقق مصلحتنا القومية مصلحة الشعب . وفي نفس الوقت احذروا ان تكونوا خياليين في مثاليتكم فتحرموا على انفسكم حق التكتيك وفائدته.

البناء و الهدم

يقولون إن الحياة هدم وبناء ... والقصد من ذلك ، التعبير عن ضرورة التطور فالإنسان مخلوق تقدمي ، طموح الى العلى بطبعه فهو لا يرضى عن حالته التي هو فيها ويسعى لبلوغ حالة أفضل . ولذا تراه ينتقد أدواته وأحدث مخترعات عصره , كما يناقش آراء الفلاسفة والمفكرين السابقين والحاضرين , ويفند الكثير منها ,وينكر بعض الأمور التي اعتبرت فترة زمن في مصاف الحقائق الخالدة وطبيعة الحياة الإنسانية القائمة على التطور الذي يوصف بالهدم والبناء اذ يقول علماء الإحياء ان جسم الإنسان يتبدل بكامله بين فترة وأخرى فتحل فيه خلايا جديدة مكان الخلايا التالفة في عملية يسمونها عملية التعويض .

لست ادري لماذا سميت هذه العملية بالهدم ولم تدع تطورا ؟ ولعل هذه التسمية من اختراع المحافظين المسيطرين المستغلين الذين يسعون الى تجميد الأوضاع لتظل سيطرتهم ويظل استغلالهم, ولذا فهم يعتبرون التطور هدما لمصالحهم . أو لعلها ايضا من اختراع المناضلين المتحمسين الذين برموا بالجمود والمحافظة الشديدة ورأوا فيها أمرا يجب إن يهدم كبيت قديم متداع لا يمكن إصلاحه بل يجب هدمه وبناء بيت جديد مكانه. ولعل هاتين الفئتين المختلفتين في الاتجاه التقتا في التسمية وعلى كل حال اذا كان القصد من كلمة الهدم هو التطور فنعم الهدم هذا , وما احرانا أن نكون هدامين من هذا الطراز هدامين لكل عادة أو خلق قبيح , ولكل نظام ووضع فاسد , ولكل أدوات وآلات قديمة بالية لنستعيض عنها بما هو أفضل منها , ولكن هناك هدم حقيقي ضار يجب أن نتجنبه وهو مرض اجتماعي وخلق فاسد منتشر بيننا , يجب أن نقلع عنه وان نتحلى بصفات البناء الذي نلمس بذوره أيضا في مجتمعنا العربي . فمن أمثلة الهدم الضار ما نراه من نقد لأعمال بعضنا البعض نقضا غير مبني على أساس صحيح , ناتج في كثير من الأحيان عن مركبات نقص او عن عيوب خلقية معقدة او عن احقاد شخصية بغيضة او مبني على أوهام وشائعات كاذبة فنحن نحتقر بعضنا احيانا لمجرد التحقير والنيل من بعضنا البعض وقد لا يكون للنقد أي أساس من الصحة يبنى عليه وقد يكون

في توافه الأمور ولكننا نضخمها ونجعل منها كبائر منكرة , وقد ننقد الآخرين بل والناس أجمعين لنبرر أخطائنا نحن ولنعتبرها صغائر اذا ما قيست بكبائر الاخرين على حد تصويرنا وقد ننقد أيضا لكي نسد الطريق على الاخرين لنمنعهم من نقدنا ,

الواقع أن النقد غير البريء هدم بالمعنى المذموم لأنه لا يؤدي الى الخير والتقدم بل يورث الأحقاد والضغائن وربما يورث الاصرار على الخطأ والتمادي المقصود فيه , وكثيرا ما يؤدي الى قتل بعض مؤسساتنا الوطنية النافعة او الى فقدان الثقة بالنفس سواء عند الفرد او المؤسسة او الامة بأجمعها.

اما النقد البناء فينشأ عن نظرتنا الى الواقع نظرة من يريد الارتفاع به الى الاعلى, و الى ان الانسان في تجربته الحياتية يستفيد من اخطائه دروسا تمكنه من التقدم والتعويض عما احدثته اخطاؤه من(تعويق) ويجب ان يسبق النقد مقدار كاف من الدراسة والبحث والمعرفة فيجيئ مبنيا على حقائق علمية لا على أوهام و شائعات . أسلوب النقد معهم أهمية دوافع النقد لان الانسان مخلوق ذو أعصاب حساسة مرهفة فهو يتأثر في الأمور النفسية تأثرا يفوق في بعض الأحيان تأثره بالمادة فقد تؤلمه الكلمة النابية أكثر من السوط . ومن المضر ايضآ ان ننتقد أمر دون ان نبين الوضع الصحيح الذي يجب ان يحل محله .

وعلى هذا يكون النقد البناء او الهدم البناء هو ما اجتمع فيه نبل القصد والدوافع مع صدق النظرة والعلم الى حسن الاسلوب والتوجيه . النقد البناء في حقيقته تعليم وارشاد الى الاستفادة من التجارب وعلى المتعلم ان يتحلى بصفات العلم والمعرفة ونبل القصد وحسن الاداء

والنقد بعد , من الأمور التي مكنت الانسان من ان يبني هذه الحضارة الإنسانية الجبارة التي بلغها وعلى جيلنا الحاضر ان يعمد الى البناء مبتدئا من النقد معتبرا اياه وسيلة للتعليم فكل خطأ يصدر عن المرء أو عن أحد رفاقه أو عن أية مؤسسة اجتماعية , يجب أن يتأكد أولا من وقوعه وان يتأكد ثانيا انه خطأ بالفعل ثم عليه ان يبحث عما هو خير منه او عما هو صواب وعندها عليه ان يرشد الى الخطأ بأسلوب خال مت التحامل او الغوغائية او التحقير وان يرشد ايضا الى الطريق السوي التي يراها دون ان يرفق ذلك بمظاهر الغرور او الاستعلاء بل بالتواضع والأدب والرزانة . وارجو ان لا يفهم من قولي هذا انني أشير الى الليونة المائعة في النقد بل على العكس بجب ان يستعمل الحزم دائما ولكن مصحوبا بالحكمة

ويجب ان نفرق بين نقدنا لاخصامنا ونقدنا لأنفسنا .فنقدنا لحكوماتنا المستقلة يجب ان يختلف عن نقدنا للمستعمرين وأذنابهم ونقدنا للشعب عمالا وفلاحين ومهنيين يجب ان يختلف عن نقدنا الحكومات التي يشكلها الاستعمار في بلادنا . ففي اخطاء الأولى يفترض حسن النية والثقة وفي الثانية لا مانع من ان يفترض سوء القصد وعدم الثقة والسبب في ذلك واضح جلي

فإلى الإقلاع عن الهدم المخرب , والى الانشاء والتخلق بالنقد البناء أدعو شباب الجيل والمناضلين منهم خاصة لان ذلك من بذور البعث الذي نسعى إليه.

الالتزام و التحلل

رغبة الأمة العربية في البعث واتجاهها في سبيله ، أصبحت أمورا واضحة لا تحتاج الى جدال . وظهور إفراد وجماعات تسعى لبعث الأمة العربية وأحيائها من جديد وتوفير حياة حرة سعيدة لها ، أصبحت حقيقة واقعة . لكن عقبات كثيرة كالاستعمار والرجعية

تعترض الطريق ، وان لم يتحل المناضلون الشعبيون بأخلاقية متينة دؤوبة صلبة تعرضت الحركة العربية للخطر .ولقد تحدثت في كلماتي السابقة عن النواحي الأخلاقية التي يجب إن يمارسها المناضلون ، فقلت ان المناضلين خاصة والشعب عامة ، يجب إن يشعروا بالمسؤولية وان يكونوا عمليين شعبيين ، تقدميين ، يؤمنون بالعمل الجماعي البناء . ويتهيئون للنضال والتضحية ، ويسلكون سلوكا جزئيا أخلاقيا ، ويبدعون من وسائل النضال ما يجعلهم مجددين لا مقلدين . كما قلت إن عليهم إن يحاربوا ما يجعلهم مجددين لا مقلدين . كما قلت ان عليهم ان يحاربوا رواسب التربية الفاسدة التي خلقها لجيلنا الاستبداد والاستغلال والاستعمار , كاللامبالاة والنظرية , والأخلاق الإقطاعية والفردية والأنانية و النظرة المحافظة والجبن والانتهازية , والميكيافلية والهدم .واليوم أقول بضرورة الالتزام ومحاربة التحلل واعني بالالتزام , القيام بالواجبات الاجتماعية كاملة وبشكل حار ومتقن , والابتعاد عن الإهمال والتملص والارتجال. فلا يكفي أن نعرف واجباتنا (مع أن ذلك أمر هام) ولكن علينا أن نؤدي هذه الواجبات بشكل متقن , وبعد دراسة وتخطيط بعيد عن الارتجال كما أنه لا يكفي إن نعرف العناوين الرئيسة أو الأهداف الرئيسة فقط , بل علينا إن ندخل إلى صميم التفاصيل في الأفكار والتخطيطات . فقد نسمع من الجميع دعوة إلى التحرر ومن أي شيء يكون ؟ وكيف يمكن أن نصل إليه وما واجبنا المباشر في هذه الفترة من الزمن نحو قضية التحرر ؟ إذا ما دخلنا في هذه التفاصيل نجد الخلط والإبهام والتعميمات الواسعة الفضفاضة التي يختلط فيها الصواب والخطأ وتضيع فيها الجهود هباء ويصبح الارتجال هو المسيطر. هذا من ناحية ومن الناحية أخرى نجد البعض حين يدعون إلى التحرر مثلا قد يكتفي بالجعجعة والمواقف النظرية الجوفاء يعبر بها عن انتفاخه وفي نفس الوقت يتهرب من كل موقف عملي منتج ومن كل مسؤولية تنظيمية أساسية , خصوصا إذا كانت لا تفسح له فجال الظهور الأجوف .

أيها الشباب العربي إنني ادعوكم إلى العمل بالأخلاق النضالية التي ذكرت والابتعاد عن نقائضها التي ورثناها عن العهود الفاسدة. ولقد قلت العمل بالأخلاق ولم أقل التحلي بها لأنني أعتقد إن الأخلاق إعمال لا أشكال وأرى أن التزام العمل بهذه الاتجاهات وتنفيذ ما تفرضه علينا من مواقف , وبذل ما تتطلبه من تضحيات , هو أمر واجب علينا وقدر محتوم لا يجوز التهرب أو التحلل منه اذا ما أردنا لأنفسنا ولأمتنا حياة حرة كريمة سعيدة وعلينا أن نعلم بوضوح أن مرحلتنا التاريخية هي مرحلة البناء وأننا مازلنا نضع الأساس ،الأساس المتين لبناء العروبة الشامخ وإذا لم تكن الاسس والقواعد التي نرسيها متينة وصلبة , تعرض البناء في المستقبل للخطر الشديد كما يجب أن نعلم أن الكثير الكثير من عملنا وتنظيمنا ونشاطنا قد لا يكون واضحا وذا نتائج قريبة وبالتالي مشجعا , وذلك لان إرساء الأسس يكون عملا في العمق وتحت السطح قد لا تراه العيون السطحية غير المدققة ويحتاج إلى الكثير من الجلد والصبر والمثابرة والالتزام .

فإلى العمل الملتزم أدعوكم يا شباب الجيل الجديد .

بهجت أبو غربية

فلسطين – مارس 1956

